ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 22 ديسمبر 2020

تاريخ مقتضب للإلحاد الفلسفي

أندري كونت سبونفيل
ترجمة: حمادي أنوار

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020
All rights reserved © 2020

تاريخ مقتضب للإلحاد الفلسفي[1]

أندري كونت سبونفيل
ترجمة: **حمادي أنوار، المغرب**

[1]- Comte-Sponville, André (2019): «Brève histoire de l'athéisme philosophique» in: «Contre la peur et cent autres propos», Editions Albin Michel, Paris. p-p: 109- 117

يفترض الإلحادُ فكرةَ الإله (Théos) مادام أنه ينفيها؛ ولذلك فالدين أقدم منه. وهذا الأمر صحيح، خصوصًا عند الفلاسفة. لم يترك لنا اليونانيون، الذين كانوا يتبادلون في ما بينهم تهمة الإلحاد بصدر رحب، (إذ كان يكفي ألَّا تُؤْمِن بالآلهة نفسها التي يؤمن بها الآخرون، حتى تستحق هذه التهمة) سوى القليل من الفلسفات الملحدة. ترِدُ هنا عبارة جميلة لبروتاغوراس، حيث يقول: «لا يمكنني أن أقولَ أي شيء بخصوص الآلهة، لا يمكن أن أقول بوجودها أو بعدمه، إذ إن كثيرًا من الأشياء تحول دون معرفة ذلك: أَوَّلُها غموض السؤال، ثم قِصَرُ الحياة الإنسانية.» يبدو، كما نرى، أن الأمر يتعلق باللاأدرية أكثر من أنه إلحادٌ. نستحضر مثلًا ديموقريطس، دياغوراس من ميلوس، كريتياس، ثيودوروس القوريني، إقيمير الميسيني...إلخ، الذين لم يكن اختفاء أعمالهم صدفة دون شك، والذين لا نعرف شيئًا عن أفكارهم تقريبًا - باستثناء ديموقريطس، الذي نُوقِشَ إلْحَادُه، غير الموثوق منه، من طرف المتخصصين. أما في ما يخص أبيقور، الذي وَسَّع المذهب الذري الديموقريطي وغَيَّره، فإنه لم يكن مُلحدًا. إذْ كان يرى أن الآلهة توجد حقًّا، لكن ليس على هذه الأرض: إنها كائنات مادية، خالدة، سعيدة جدًّا، تعيش بين العوالم ولا تكترث بنا. إذن، غيرُ مُجْدٍ أمرُ خشيتها، أو استجداء شيء منها كيفما كان، بل حَرِيٌّ أن يُقتَدى بسكينتها الكاملة، فالحكمة تحل محلَّ الدين.

لهذه الفلسفة اللائكية، أكثر منها ملحدة، سيقدم الفيلسوف الأبيقوري لوكريس، في روما، خطابات شديدة اللهجة، إلى درجة أن باتَ فعلًا هو أول مفكر لاديني تصلنا أعماله. إن الدين، كما يقول لوكريس، وليدُ الخوف والجهل: فالبشر يخترعون آلهة، حتى يفسروا ما لا يفهمونه، وليحموا أنفسهم، كما يعتقدون، ضد الأخطار التي يعجزون عن تجاوزها. إنَّ هذا، حسب صاحب كتاب ''في الطبيعة''، لا يخلق لديهم سوى مزيد من الخوف الذي يُهلكهم.

في القرن السابع عشر، سيهتدي سبينوزا إلى جزء من هذا الإلهام النقدي والعقلاني، ليس أكثر مما فعل لوكريس، رغم أنه ينفي عن نفسه شبهة الإلحاد. فقد طابق بين الإله والطبيعة «Deus sive Natura»، التي توجد طبعًا، لكن لا يمكنها أن تكون أقنومًا، ولا حتى أقانيم ثلاثة. انطلاقًا من هذا، وحسب التأويل الذي أُعطي له، فإننا إزاء مذهب ''وحدة الوجود'' (الإله هو الكل)، مذهب ''وحدة الشهود'' (الكل في الإله)، أو ''المذهب الطبيعي'' (الطبيعة هي الكل: لا يوجد ما هو فوق طبيعي).

لم يظهر الإلحاد كما هو معروف، إلا مع القرن الثامن عشر، ومن المستحيل أن نعيد تشكيل تاريخه في بضعة أسطر. ولذلك، من الأفضل أن نستلَّ منه بعض الاتجاهات الرئيسة.

الإله بما هو تضليل: الكاهن ميسليي Meslier

إن أغلب فلاسفة القرن الثامن عشر ليسوا ملاحدة: لقد كان فولتير ربوبيًّا، وهيوم شكاكًا، وكانط لوثريًّا...إلخ. لكن الإلحاد، وإنْ ظلّ مُقتصرًا على الأقلية، فقد باتَ موقفًا فلسفيًّا يمكن الركون إليه. إنه أشبه ما يكون بمذهب عقلاني مندفع لأبعد مدى -إلى درجة رفض كل ما هو فوق طبيعي، وكلّ تعالٍ، وكل إيمان. لقد كان يُعاشُ هذا الإلحادُ لمجابهةِ مسيحية متسلّطةٍ، أولًا بوصفه ثورة: ضد الأقوياء، وضد الكنسية التي تخدمهم، ولكن أيضًا ضد الدين نفسه.

كان لوكريس مُلْهِمَ الأنوار، خصوصًا في فرنسا. وقد كتب البارون دولباخ قائلًا: «إن الجهل والخوف هما مِحْوَرَا كلّ دينٍ.» ويقول ديدرو، على نحو أكثر طرافة، إن إله المسيحيين عبارة عن أب يُعنى بتفاحه أكثر مما يهتم بأبنائه. بالنسبة إلى جون ميسليي (1664 - 1729)، الذي كان يشغل منصب قسٍّ -لن يكشف عن إلحاده إلا في «وصية» طويلة نُشرت بعد موته- فإن التمرد والإلحاد يتداخلان بشكل وطيد. باستغراقه في إثارة موضوع الزندقة القديم، الخاص بِـ «المخادعين الثلاثة» (موسى، عيسى ومحمد)؛ فإن ميسليي يُدين التواطؤ بين الكنيسة، الأثرياء والطغاة. لقد كتب يقول: «جميع أشكال العبودية مترابطة، ولم يعد الناس المتعودون على التخريف بخصوص الآلهة، والارتعاش تحت صولجانها، وطاعتها دون اختبار، يتعقلون أيّ شيء.» هذا هو ما جعلهم خاضعين أو مُنبطحين؛ إن الإيمانَ يلازمُ الخضوعَ، وكذلك تُلازمُ الحريةُ اللا إيمان.

الإله بما هو استلاب: فيورباخ

في القرن التاسع عشر، خصوصًا في العالم الجرماني، لم يعد الإلحاد يشكل استثناءً من الناحية الفلسفية. وسيبدأ هذا مع نشر كتاب «روح المسيحية» لِـ «لودفيغ فيورباخ» سنة 1841م، وهو ما سيسميه إنجلز بِـ «الصاعقة». فهذا الكتاب الذي كان له تأثير واضح على ماركس الشاب، هو، أولًا، عبارة عن نقد للدين بما هو استلاب. فالإنسان، كما يشرح فيورباخ، يُسقطُ ماهيته الخاصة خارج ذاته، على كائن متخيل، لكنها ماهيةٌ مُتحررةٌ من قيودِ الفردِ ومن ضعفه. أليست لذاتي ملكة التفكير، والفعل والحب؟ إذن أتخيل كائنًا ستكون له هذه الملكات الثلاث، لكنها لانهائية الحدود (إذن فهو كائن كُلِّيُّ المعرفة، وكُلِّيُّ القدرة، وكُلِّيُّ الحب)، وهذا ما أسميه الإله. باعتباري فردًا، فإن هذا يقلّل من شأني: فأمام هذا اللانهائي أنا لست شيئًا، أو أكاد أكون لا شيئا. لكن بوصفي كائنًا إنسانيًّا، هذا يُعلي من شأني: إنه مثل طقسٍ تقديسي أُمَجّدُ به الإنسانية، دون أن أدري.

يمكننا أن نرى لماذا يتحدث فيورباخ عن الاستلاب: نظرًا لأن الإله مُشاعٌ عنه أنه مفارق؛ فإن الإنسان، في الدين، يجعل من نفسه كالغريب (alienus) عن ذاته. لكن ''انسلاخ الإنسان عن نفسه'' هو مجرد استيلاء حُلمي وطفوليّ على ماهيته الحقيقية. ''لقد خلق الإنسانُ الإلهَ على صورته''، هكذا كتب فيورباخ عاكسًا صيغة ''سفر التكوين''. في كل دين إذن، الإنسان هو من يُعْشَق: التجسيم هو حقيقة التقوى، مبرره وسر عظمته. وهذا صحيح بالأخص في المسيحية. تُعَبّر عقيدة التجسيد عما هو أساسي، وتتجاهله في الآن نفسه: لأن الإنسان «كان هو الإله نفسه»، لذلك تمكن من اختراع هذا الإله الذي جعل من نفسه إنسانًا. إن إماطة اللثام عن حقيقة الدين، باعتباره إنسية مُستَلَبة، يعني، إذن، فَسْحَ المجال أمام إنسية حقيقية، تستعيد فيها الإنسانية لنفسها ما أسقطته، خطأً، على الإله. هنا يصير الإلحادُ دينَ الإنسان: إذا كانت ماهية الإنسان بالنسبة إليه ماهية أسمى؛ فمن الضروري إذن، عمليًّا، أن يكون القانون الأسمى والأول هو حب الإنسان للإنسان. إن الإنسانَ إلهٌ بالنسبة للإنسان Homo homini deus est. هذا هو المبدأ العملي الأسمى، وهو نقطة تحول التاريخ العالمي.

الإله بما هو مُخدّر: ماركس

يحضر هذا البعد الإنسي أيضًا، عند ماركس الشاب؛ لكنه سيغدو عنده، شيئًا فشيئًا، دينيًّا، وأكثر من ذلك سياسيًّا. لقد لاحظ ماركس أن «فيورباخ اختزل ماهية الدين في الماهية الإنسانية. لكن هذه الأخيرة ليست تجريدًا ملازمًا للفرد المنعزل. إنها، في حقيقتها، هي مجموع الروابط الاجتماعية.» إذن، فالمجتمع هو ما يجب تغييره لتحرير الإنسان. وقد أفضَتْ هذه الفكرة، منذ سنة 1844م، (حيث كان ماركس يبلغ من العمر 26 سنة) إلى نص مشهور، واضح وجميل جدًّا، يكفي أن نورده هنا، ويقول فيه:

«إن الضائقة الدينية هي، في الوقت نفسه، تعبير عن ضائقة واقعية، واحتجاج عليها. والدين هو تَأَوُّهُ مخلوقٍ مُضْطَهَدٍ، ورُوحُ عالمٍ بلا قلب، كما أنه روح ظروف اجتماعية لا روح فيها. إنه أفيون الشعوب.

وإلغاء الدين، لكونه سعادة وهمية بالنسبة إلى الشعب، هو الضرورةُ التي تشكِّلُ سعادتهم الحقيقية؛ ومطلب تخلي الشعوب عن الأوهام المتعلقة بوضعيتها، يعني ضرورة تخليها عن الوضع الذي تحتاج فيه إلى الأوهام.»

إن نقد الدين ونقد المجتمع متلازمان؛ فلا وجود لعالم آخر، وهو ما يستوجب تغيير هذا العالم.

الإله بما هو سُمّ أو جثة: نتشه

لن يرى نتشه في الاشتراكية، التي كان يكرهها، سوى أخلاقًا للعبيد، والتي هي امتداد للمسيحية أكثر مما هي مناهضةٌ لها. فماذا يؤاخذ نتشه على الدين؟

لقد آخذه على أنه وَضَعَ كل القِيم في الإله، وهو ما يبخس قدر العالم الواقعي. وأنه يحتقر الجسد باسمِ نَفْسٍ يُزْعَمُ أنها خالدة، وأنه يُدِينُ الحياة بِاسْمِ عالَمٍ آخر متخيَّل. يقول نتشه: «إنه تاريخ مؤسف، إذ يبحث الإنسان عن مبدأ يتمكن بِاسْمِه من احتقار الإنسان، ويخترع عالمًا آخر لكي يتأتى له الافتراء على هذا العالم وتدنيسه؛ وهو في الواقع لا يستوعب أبدًا سوى العدم، ويجعل منه -العدم- «إلهًا» و«حقيقة»، من شأنِه الحكم على هذا الوجود وإدانته». إن هذا هو انتصار الحقد الذي يَتَوَسَّلُه الضعفاء لتأنيب الأقوياء. إن الدين توحيدي في كل الحالات، وهو «ثمرة الانحطاط» و«نقيض الحياة» و«سُمُّـ»ـها.

إن «موت الإله»، الذي ينادي به نتشه، لم يُصْلِح من حال الوضع إطلاقًا. فعندما مات، لم يتبقَّ من القيم، التي كان يتم إسقاطها عليه، سوى هذا العالم المنحط، الذي هو عالمنا. إن الدين يُفضي إلى العدمية. فما علاج ذلك؟ إنه «الأسلوب العظيم» المتمثل في حبّ ما هو موجود («حب القدر amor fati») وتأكيد «إرادة القوة». وهذا يفترض قلبَ جميع القيم، خصوصًا القيم اليهودية-المسيحية. لقد مات الإله، إذن نحن من عليه أن يخلق الإنسان الأعلى...

الإله بما هو وهمٌ: فرويد

إن أسلوب فرويد كان أقل تنميقًا؛ فالإيمان، بالنسبة إليه، وهو الذي لم يكن يَدَّعي أنه فيلسوف، وإنما كان شغوفًا بالفلسفة، هو أولًا عبارة عن عَرَض symptôme. إنه يُعبّر عن ضائقتنا، التي هي امتداد لضائقة الطفل، ويعبّر كذلك، في الآن نفسه، عن حاجتنا إلى الحماية. إنه أشبه بتسامي عقدة أوديب: الإله عبارة عن أب مُمَثْلَن، جيّدٌ وأكثر قوة في الوقت نفسه. كما أنه جدير بالحب والطاعة، حتى من لَدُن الراشدين. هذا ما يجعل من الإيمان شيئًا ثمينًا لأجل التحكم في الغرائز الجنسية، وخطيرًا جرَّاء الكبت الذي يفرضه. بهذا يشكل الدين ما يشبه «عصابًا استحواذيًّا جماعيًّا.» غالبًا ما يكون الدين نافعًا، سواء بالنسبة إلى الإنسانية («لقد قدم الدين، بلا شك، خدمات عظيمة للحضارة») أو للفرد، (إذ يمكن لعصاب جماعي أن يعفيه من خوض تجربة «عصاب شخصي»). وهذا ليس سببًا للاعتقاد فيه؛ فكل دين هو وهم، بمعنى اعتقاد «نابع من رغبات إنسانية». إن الاعتقاد في الإله يعني تصور الإنسان لرغباته على أنها واقع. في كتابه ''مستقبل وهم'' كتب فرويد يقول: «إنه لجميل حقًّا أن يكون هناك إله خالق للعالم، وأن توجد عناية إلهية مليئة بالرأفة، وأن يكون

هناك نظام أخلاقي للكون، وحياة بعد الموت؛ لكن من المثير للفضول فعلًا أن يكون هذا كله هو بالضبط ما يمكننا أن نتمناه لأنفسنا.»

من الحرية إلى الحب:

خلال القرن العشرين، يوشك الإلحاد أن يصبح ديدن الأغلبية في الأوساط الفلسفية، كما أن مسألة الإله، ستبدو فاقدة لبعض حِدَّتها. وهذا لن يمنع العديد من الكتاب، أن يُولوه مكانة ذات بال، ولو بشكل غير مُصرَّح به. نعتذر إن لم نتمكن من تناول سوى أربعة من هؤلاء الكتاب، وذلك بسبب ضيق المجال.

على الرغم من أنه كان نصيرَ الحركة المعادية للإكليروس، خصوصًا في شبابه؛ لم يَكُف ألان Alain (إميل شارتيي) عن الاقتراب من روح الأناجيل، لكن بمعنى إنسي ليس إلا. («لم يكن يسمح لنفسه بتبجيل غير الإنسان»). كان يبدو له أن الدينَ، في الآن ذاته، وهميٌّ في ما يخص ما يقوله عن الإله، وحقيقيٌّ في ما يكشفه بشكل رمزي عن الإنسانية، وهو ما يلخصه ألان في جملةٍ تمتزج فيها معاداة الإكليروس والإنسية والروحانية؛ ويقول فيها: «كل شيء في الدين حقيقي ما عدا الوعظ. وكل شيء فيه جيد ما عدا القس.»

أما برتراند راسل، فهو أكثر شراسة. فقد كتب يقول: «إن وجهة نظري حول الدين هي نفسها وجهة نظر لوكريس. أرى أن الدين عبارة عن مرض ناتج عن الخوف، وهو منبع الأحزان التي لا توصف.» لقد كان صاحب كتاب ''مبادئ الرياضيات'' عالمَ منطقٍ مُحَنَّكٍ جدًّا، لكي يتقبَّل «البراهين» المزعومة حول وجود الإله، وكان أشد نزوعًا إلى التعاطف («كان يشعر بشفقة مؤلمة أمام معاناة الإنسانية») بما لا يسمح له بالاعتقاد في إلهٍ خَيِّر وَكُلّي القدرة. وكان، أخيرًا، مُفْرِطًا في نزوعه الإنساني حتى يتقبل خضوع الناس لشيء آخر غير القيم -خصوصًا الخضوع إلى «الحب المُوَجَّه بالمعرفة»- التي يخلقونها لأنفسهم.

في حين كان لسارتر، الإنسي المذهب أيضًا، وإن على نحو مختلف، موقف من الدين أقل شراسة؛ فقد كتب يقول: «إنه الإله هو، أوّلًا، محسوس بقلب الإنسان، كما يُعلن ذلك ويحدده مشروعه الأساسي والأسمى.» أي مشروع هذا؟ إنه الانفلات من الاحتمال بجعل نفسه هو أساس هذا الاحتمال ذاته. كالكائن الذي تقدسه الأديان: «الكائن الذي هو علة ذاته.» فَـ «أن تكون إنسانًا معناه السعي إلى أن تكون إلهًا، أو إذا شئنا القول، إن الإنسان هو بالأساس رغبة في أن يصير إلهًا.» هذا ما يُقَرّب سارتر من فيورباخ، على نحوٍ ما، غير أن المذهب الإنسي السارتري ليس دينًا، أو أن سارتر توقف عن الاعتقاد فيه: «هكذا، فإن شغف الإنسان هو عكس شغف المسيح؛ لأن الإنسان يضيع نفسه بما هو إنسان حتى يُولَد الإله. لكن فكرة

الإله متناقضة، ونحن نضيع أنفسنا سدى.» وإنْ ليس تمامًا، بما أن عدم وجود الإله هو أيضًا ما يسمح لنا -ويفرض علينا- بأن نكون أحرارًا.

سيأتي في الأخير مارسيل كونش M. Conche لِيَعْترفَ بما يمكن أن نسميه بالإلحاد القيمي أو الأخلاقي؛ فمعاناة الأطفال، منظورًا إليها باعتبارها شرًّا مطلقًا، تجعل الاعتقاد في الإله غير مقبول أخلاقيًّا. لو كان الإله موجودًا لكانَ ناقصًا (بما أنه يترك الأطفال يعانون بوحشية)؛ وبذلك لن يكون إلهًا: ومن ثم ستكون محبته خطأ. «لو أن ''الإله'' موجود، فإنه ليس إلهًا.» (بما أنه ليس طيبًا)؛ وإذا كان إلهًا، فإنه غير موجود. إن الدين الوحيد المقبول سيكون هو دين الحبّ، الذي ليس واحدًا. إن الحب هو، بالفعل، «طريق مضمون إلى الإله»، لكنه يعفي من الاعتقاد فيه، وهو ما يحررنا من جميع الأديان، حين يعبر عن حقيقتها ويضع لها حدودًا: إنه الحب هو ما يجعلنا نحيا وليس الإله.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020